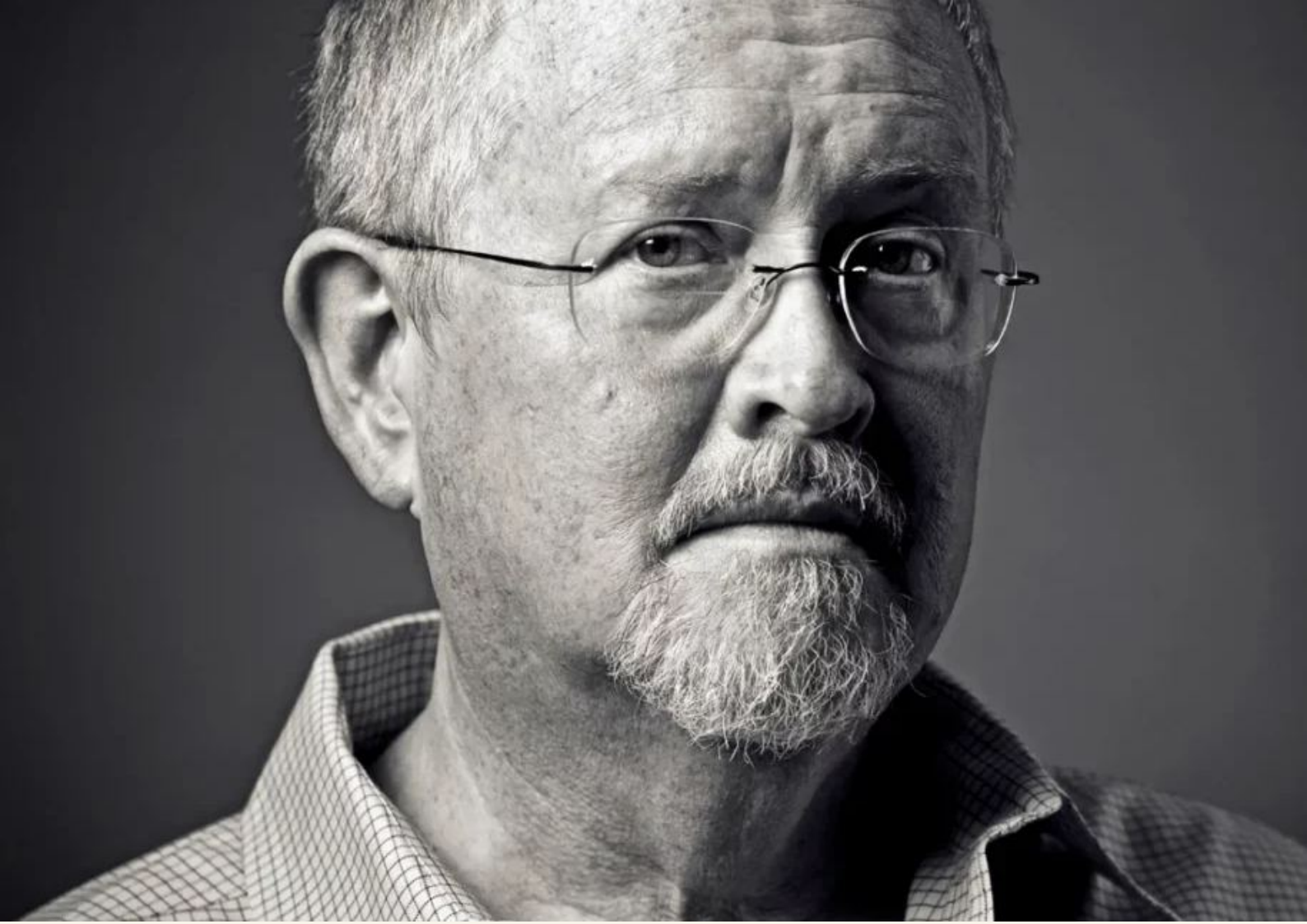




المحرر

مما قرأت

# كيف يخلق ترتيب المفردات المعنى في الجملة؟ الفاعل والمفعول نموذجاً

في مقال سابق تناولت أن وضع المبتدأ في صدارة الجملة الاسمية؛ وهو موضعه الأصلي، ليس حياً بل اختياراً واعٍ؛ لأن هذا الاختيار هو جوازاً؛ إذ إنك يمكنك أن تُقدّم المبتدأ أو تؤخّره لإحداث تأثيرات مختلفة، ليس فقط تلك التي تحدّث عنها البلاغيون. إذ إن ما لم يتحدثوا عنه أهم مما تحدثوا عنه. وقد أوضحت كيف [...]

---

بقلم رشاد عبد القادر · ٥ نيسان ٢٠٢٦ · قراءة في ١٥ دقيقة

أورسن سكوت يارد



وقد أوضحت كيف تطوّر النحو بطريقة فصلت ما بين المبني والمعنى بما لا يخدم مهنة الكتابة. وأورده هنا في نص قابل للطّي.

كيف صار النحو عائقاً أمام الكتابة؟

لستُ من المغرمين بالنحو العربي. خضتُ محاولاتٍ عديدة، لكنّ جميعها باءت بالفشل؛ ليس لأنّ النحو صعبٌ ومعقّد، وهو كذلك، بل لأنّه عند حدٍّ معيّن، يصبح لا طائل من ورائه. من الجيد أن تتعلّمه، لكنه لا يفيدك كثيراً في حياتك بوصفك كاتباً.

الحقّ، أن النحو العربي لم يبدأ علماً، بل بدأ مشكلةً؛ مشكلةً فهم. بدأ داخل التفسير والقراءات وشرح ألفاظ القرآن. ففي اللحظة التي أصبح فيها النصّ القرآني محور الحياة الدينية والفكرية، لم تكن اللغة موضوعاً مستقلاً، بل كانت شيئاً يُستخدم لفهم ذلك النص. لم يكن أحد يسأل: كيف تعمل اللغة؟ بل كان السؤال الوحيد: ماذا تعني هذه الآية؟ كيف تُقرأ؟ ولماذا اختلفت القراءة؟ وأيّها أدقّ في الدلالة؟

في هذه المرحلة، لم تكن هناك حاجة إلى بناء قواعد عامة. كان يكفي أن تُفسّر كل حالة في سياقها. فإذا وُجدت عبارة غامضة، فُسّرت، وإذا ظهرت قراءة مختلفة، سُرحت. كانت اللغة هنا تُعالج موضعياً، لا نظرياً. ولذلك كانت المصطلحات قليلة، مرنة، وغير مستقرة، لأنها لم تكن جزءاً من نظام، بل أدوات مساعدة تُستعمل وتُترك. وقد تطور هذا التقليد، في المقام الأول، في الكوفة.

وهذا على خلاف التصور الشائع القائل إنه كان هناك منذ البداية «مدرستان» واضحتان: بصرة وكوفة. وأن النحو كان علماً ناضجاً مبكراً، وأن تطوره كان يسير في خط مستقيم من أبي الأسود إلى سيبويه ثم من بعده، وأن البصرة كانت تمثل العلم الصحيح، وأن الكوفة أقل قيمة. هذه الصورة صنعتها المصادر المتأخرة إلى حد كبير، ولا تعكس الواقع المبكر بدقة.

أي إنّ النحو في البداية لم يكن «نحواً» بالمعنى المتأخر، بل كان اهتماماً بالنص القرآني: كيف يُفهم؟ كيف تُشرح ألفاظه؟ كيف تُبين معانيه؟ كيف تُفهم وجوه القراءة فيه؟

في تلك المرحلة، لم تكن العلوم منفصلة كما صارت لاحقاً. لم يكن هناك حدّ صارم بين: التفسير، والقراءة، واللغة، والأخبار، والفقه، والعقيدة، وشرح الألفاظ، والنحو. بل كانت هذه كلها متداخلة داخل جهد واحد هدفه الأساسي: فهم كلام الله.

وكثيرٌ من المصطلحات التي نعدّها لاحقاً «نحوية» بدأت في الأصل كلماتٍ عادية غير تقنية استعملها المفسرون والقراء في شرح النص، مثل ألفاظ من نوع: نعت، وخبر، وصلة، وبدل، واستفهام، وماضي، ومستقبل. وهذه لم تكن، في أول أمرها، جزءاً من جهاز علمي صارم، بل ألفاظاً تفسيرية مرنة تُستخدم بقدر ما يخدم المعنى.

إذن، لم يكن المنشأ الأول علم اللغة لذاته، إنما خدمة النص.

ومع أن الكوفة احتفظت بصلات أوثق بهذا الأصل التفسيري، فإن طريقتها في التعامل مع اللغة واجهت مشكلة مع مرور الوقت. فكلما كثرت الحالات، وكثرت القراءات، وكثر الداخلون في اللغة من غير أهلها، لم يعد ممكناً

الاكتفاء بالشرح الجزئي. صار هناك ضغط خفي يدفع نحو شيء آخر: نحو التعميم. فبدل أن تفسّر كل جملة على حدة، أصبح من الأسهل أن تقول: هذه قاعدة، وما يحدث هنا مثال عليها.

هنا تبدأ النقلة الأولى نحو التعقيد، لكنها لا تظهر بعد بوصفها تعقيداً، بل بوصفها اختصاراً للجهد. القاعدة تُغني عن عشرات الشروح. لكن كل قاعدة تفتح باباً جديداً: إذا كانت هذه قاعدة، فماذا نفعل بالاستثناء؟ وإذا وُجد استثناء، هل هو حقيقي أم له تفسير؟ وإذا كان له تفسير، فما هو؟

في هذه اللحظة بالذات، بدأت اللغة تتحول من مادة تُستعمل إلى مادة تُفسّر؛ لا تفسيراً دلاليّاً كما كان في البداية، أو كما فعل الكوفيون، بل تفسيراً بنيوياً. ثم جاءت اللحظة الحاسمة: محاولة بناء نظام كامل، وهنا برزت البصرة.

ما فعله سيبويه في البصرة لم يكن مجرد جمع لهذه القواعد، بل محاولة لإغلاق النظام؛ أي جعل اللغة قابلة للتفسير الكامل داخل شبكة من العلاقات الداخلية: هذا يرفع، وذاك ينصب، وهذا يتعدى، وذاك يُحذف، وهذا يُقدّر. لم يعد هناك مكان للصدفة أو للسليقة وحدها. كل شيء يجب أن يكون له موقع داخل النظام.

وهكذا انفصل المبني عن المعنى، على النحو الذي لم يكن مألوفاً من قبل. لكن هذه الخطوة تحمل في داخلها بذرة التعقيد الهائل؛ لأنك عندما تقرر أن كل شيء له تفسير، فإنك تُلزم نفسك بتفسير حق ما لا يحتاج إلى تفسير.

خذ مثلاً بسيطاً: الجملة التي تُقال: العرب قالوها هكذا.

في النظام الجديد، هذا الجواب لم يعد كافياً. صار لا بد من السؤال: لماذا قالوها هكذا؟ ما العامل؟ ما العلة؟ هل يمكن القياس عليها؟ وإذا لم يمكن، فلماذا؟

كل سؤال من هذا النوع لا يُغلق، بل يفتح سؤالاً آخر. وهكذا تبدأ السلسلة: قاعدة «استثناء» «تعليل» «تعليل للتعليل» «تقسيم» «تقسيم للتقسيم».

وهنا لا يكون التعقيد نتيجة خطأ، بل نتيجة منطق داخلي بنيوي صارم.

إذن، الفرق بين الكوفة والبصرة ليس مجرد خلافات صغيرة بين مدرستين متشابهتين، بل بين طريقتين مختلفتين في النظر إلى اللغة: فالكوفة أقرب إلى المعنى، وأقرب إلى التفسير، وأقرب إلى القراءات، وأقرب إلى التراث الأقدم، بينما البصرة، لا سيّما عند سيبويه، أقرب إلى التحليل البنيوي، وأقرب إلى التجريد، وأقرب إلى بناء جهاز نظري مستقل.

وحاولت كتب التراجم والطبقات والنحو اللاحقة أن تقلل من إسهام القراء في نشأة النحو. وكان لسان حالها يقول: إذا كانت الكوفة متصلة بالقراء، والقراء ليسوا علماء لغة حقيقيين، فالكوفة إذن أضعف علمياً. لقد أعادوا بناء تاريخ النحو بطريقة فضّلت البصرة وهَمّشت دور القراء.

لكن في الواقع، كان القراء فعلاً مؤثرين، وإلا لما احتاجت المصادر المتأخرة إلى محاربتهم أو تقليل شأنهم. أي إنّ تهميشهم في الرواية المتأخرة عن النحو ليس دليلاً على غيابهم، بل قد يكون دليلاً على قوة حضورهم

القديم.

الحقيقة أنَّ سيوبه لم يكن مجرد جامع لما قبله، بل أحدث قطعة كبيرة. لم يعد هدفه الأساسي تفسير القرآن، ولم يعد يشرح اللغة فقط لفهم النص، بل صار هدفه تحليل الوقائع اللغوية نفسها؛ أي تحويل اللغة إلى موضوع علم قائم بذاته.

فاللغة عند سيوبه أصبحت نظاماً له علاقات، ووظائف، وزُتب، وأبواب، وعلل، وقياس، وبنية داخلية. وليس المعنى أن سيوبه ظهر من فراغ، بل إن ما فعله كان أكبر بكثير من مجرد تطوير بسيط لما كان قبله.

ثم إنَّ عاملاً آخر دخل وزاد الأمر تعقيداً وتوتراً: البيئة العلمية.

حين أصبح النحو علماً، لم يعد مجرد وسيلة، بل صار مجالاً للتميز. كل نحوي لا يريد فقط أن يشرح، بل أن يضيف؛ أن يأتي بتفسير أدق، أو تقسيم جديد، أو مصطلح لم يُستخدم من قبل. ليس بدافع المال وحده، بل بدافع المكانة: أن يكون له رأي، وأن يُنسب إليه مذهب، وأن يُذكر اسمه في السلسلة.

لكن هذا التنافس لا يخلق التعقيد من الصفر، بل يعمل كجهاز مسرع. فكل مفهوم موجود يُعاد تفريغه، وكل قاعدة تُعاد صياغتها، وكل استثناء يُعاد تأويله. ومع مرور الزمن، لا تُحذف الطبقات القديمة، بل تبقى، وتُضاف فوقها طبقات جديدة.

والنتيجة أننا لا نتعامل اليوم مع نحو واحد، بل مع تاريخ متراكم من المحاولات.

في هذه اللحظة، يفقد النحو علاقته الأولى باللغة كما تُستعمل؛ لأن اللغة في الاستعمال لا تحتاج إلى كل هذا. الجملة تُبنى بدافع المعنى، والإيقاع، والسياق. أما النحو، فقد أصبح يلاحق الجملة بعد أن تُقال، ليعيد تفسيرها داخل نظامه.

وهنا يظهر التوتر الذي نحس به في الكتابة.

في الكتابة، نبني الجملة من الداخل: من إحساسها، ومن حركتها، ومن موقع كلماتها في الزمن. بينما النحو يأتي من الخارج: يسأل عن مواقع ثابتة، وعلاقات محددة، وتعريفات مغلقة.

لذلك يبدو لي أحياناً هذا النحو ساذجاً؛ لأنه يقدّم تفسيراً شكلياً لشيء أنتج أصلاً بطريقة غير شكلية. والأهم من ذلك أن النحو، في صورته المتأخرة، لا يهدف إلى مساعدتنا على الكتابة، بل إلى ضبط ما كُتب. هو علم يُغلق، لا علم يفتح.

من هنا، لا يكون الحل في رفض النحو، ولا في تبسيطه السطحي، بل في إعادة وضعه في مكانه الصحيح داخل عملية الكتابة.

أن نفصل بين مستويين لعملية واحدة:

مستوى يُعنى بصحة الجملة، وهذا مكانه النحو،

ومستوى يُعنى بقوة الجملة، وهذا مكانه الكتابة.

وحين نعود إلى الجملة من هذا الباب، لن نحتاج إلى هدم النحو، بل إلى

تجاوزه مؤقتاً: أن نكتب أولاً، ثم ننظر بعد ذلك إن كانت الجملة تنكسر في موضع ما؛ لا لتعريبها، بل لتصلح الكسر.

بهذا المعنى، فإن ما أحاول فعله في كتابي: أدوات كتابة القصة، وكيف تسرد قصة؟ وفي كتاب جديد قادم، ليس خروجاً على اللغة، بل عودة إلى لحظة سابقة في تاريخها: اللحظة التي كانت فيها الجملة تُبنى لتُفهم وتُؤثّر، لا لتُفسّر داخل نظام.

وهذه، في النهاية، ليست ابتداءً في اللغة؛ إنما قراءة مختلفة لمسار طويل انتهى بنا إلى مكان لم يُصمّم أصلاً للكتابة. قراءة تريد العودة إلى اللغة في أثناء الكتابة، لا بعدها.

ولأن هذا الكلام يبقى نظرياً ما لم يُختبر داخل نص حي، فالأجدر أن نأخذ مفهوماً نحويّاً بسيطاً، ونرى كيف يعمل داخل الكتابة نفسها.

المقال الجديد يتناول شيئاً مختلفاً: مواضع لا يجوز فيها التقديم أو التأخير لأن الترتيب نفسه هو الذي يصنع المعنى، ويمنع انهيار الجملة.

الترتيب هنا ليس خدمةً للمعنى، بل هو المعنى.

ولمناقشة ذلك، أتناول هذا المقتطف من رواية Ender's Game للأمركي أورسن سكوت كارد:

في خضمّ تقديم مشهد الانتصار، يتجسّد السرد فجأة ليغوص في أعماق ذهن إندر.

إن تعاطف إندر هو ما يمكنه من أن يُحبّ عدوه، ثم يهزمه.

**في اللحظة التي أفهم فيها عدوي حقّ الفهم، أفهمه بما يكفي لهزيمته، في تلك اللحظة أحبه أيضاً. أعتقد أنه من المستحيل أن تفهم إنساناً حقّاً، ما الذي يريده، ما الذي يؤمن به، ولا تحبّه كما يحبّ نفسه. ثم إنه في تلك اللحظة ذاتها حين أحبه... أدمره.**

ذلك التصادم بين ما يقتضيه الحدث (قتال) وما يشعر به الشخص (حب) هو الموضوع الذي يتولّد فيه الأثر العاطفي الحقيقي.

وتُعيد الذروة العاطفية تأطير الانتصار الخارجي بوصفه مأساة داخلية.

المقتطف من رواية: Ender's Game (1977) - أورسن سكوت كارد

مقتطف من رواية Ender's Game

في اللحظة التي أفهم فيها عدوي حقّ الفهم، أفهمه بما يكفي لهزيمته، في تلك اللحظة أحبه أيضاً. أعتقد أنه من المستحيل أن تفهم إنساناً حقّاً، ما الذي يريده، ما الذي يؤمن به، ولا تحبّه كما يحبّ نفسه. ثم إنه في تلك اللحظة ذاتها حين أحبه... أدمره.

In the moment when I truly understand my enemy, understand him well enough to defeat him, then in that very moment I also love him. I think it's impossible to really understand somebody, what they want, what they believe,

النحو يرى أن هذا الترتيب جاء إيجازاً، والبلاغة تراه تقييداً. لكن لا أحد منهما يرى أن «الهاء» في «أفهمه» هي أول خطوة في مسار تلاشي العدو. العدو بدأ في الجملة السابقة اسماً ظاهراً «عدوي»؛ كيانه محدداً مسمى، ثم صار في «أفهمه» ضميراً مجرداً. هذا التلاشي التدريجي من الاسم إلى الضمير ليس إيجازاً نحوياً فحسب؛ هو المسار الذي يُفضي إلى الحب:

في اللحظة التي أفهم فيها عدوي حقّ الفهم، أفهمه بما يكفي  
لهزيمته، في تلك اللحظة أحبه أيضاً.

لا نرى في «الهاء» عدواً بعينه، بل كيانه بدأ يفقد حدوده.

بينما النحو يرى في هذا اختصار مشروع؛ إيجاز مكثف جداً؛ وهذا الإيجاز ممكن فقط حين يكون «المخاطب والمتكلم عالِقين بالفاعل والمفعول». فالجملة، بحسب النحو، تتقلّص لأنها لا تحتاج إلى تصريح أو إعلان.

في الجملة الثانية:

أعتقد أنّه من المستحيل أن تفهم إنساناً حقّاً، ما الذي يريده، ما  
الذي يؤمن به، ولا تحبه كما يحبّ نفسه.

يقول النحو: «أعتقد» فعل وفاعل ضمير. ثم تأتي المفاعيل في سلسلة متدرجة: «أن تفهم إنساناً» مفعول «أعتقد»، ثم «ما الذي يريده، ما الذي يؤمن به» بيانان تقيديان للفهم. الترتيب يسير من المعلوم إلى المجهول؛ وهذا مبدأ واضح في البلاغة: الضمير المعلوم أولاً، ثم الاسم الظاهر المجهول.

وتضيف البلاغة: هذا تطبيق لمبدأ «ترقية الفائدة» بزيادة عناصرها. البناء يسير: أعتقد ← أن تفهم ← إنساناً ← ما يريده ← ما يؤمن به. كل خطوة تُضيق الاحتمال وتعمّق المعنى المطلوب، فكلما ازدادت المفاعيل ازدادت القيود المبيّنة لحدود الفعل.

لكن ما يجري أكثر من هذا:

النحو والبلاغة يصفان بنية الجملة من الخارج. لكنهما لا يريان أن «ولا تحبه» كما يحبّ نفسه» ليست مفعولاً ثالثاً، هي شرط الفهم الحقيقي. الكاتب يُدرج الحب داخل بنية الفهم نفسها: لا تفهم إنساناً حقّاً إلا حين تحبه. هذا ليس بياناً تقييدياً يُضيق الفعل؛ هو قلب المقولة الفلسفية. والنحو يرى في «ولا تحبه» معطوفاً على «تفهم»، أي نغياً موازياً. لكن ما تفعله الجملة أعمق: هي تجعل الفهم والحب شرطين متلازمين لا فعلن متوازيين، ولا يستطيع النحو أن يرى هذا التلازم لأنه يُحلّل العلاقة لا يُحلّل الشرط.

ويذهب النحو إلى أنه حين يكون الفاعل ضميراً والمفعول اسماً ظاهراً، كما في «أشَلُّتُ وَجْهِي» الآية:

and not love them the way they love themselves.  
And then, in that very moment when I love them...  
I destroy them.

نحوياً، تتدرّج العناية والاهتمام من الفعل ثم الفاعل ثم ما يسميه البلاغيون «ترقية الفائدة»، أي زيادة المعلومة عند السامع خطوة خطوة.

هذا التدرج هو العمود الفقري للجملة الفعلية التي تسير في خط متصاعد: فعل ← فاعل ← مفعول أول ← مفعول ثاني. وكل عنصر يُضيف «بياناً تقييدياً» إلى ما قبله؛ يُضيق الاحتمال، ويُحدّد الحدود.

فإن قلت:

ضرب أحمد، كانت الجملة مطلقة ومحتملة لأشياء كثيرة.

فإن قلت:

ضرب أحمد خالداً، بيّنت حدود الضرب، وقيدته بالوقوع على خالد.

وإن قلت:

أعطى أحمد خالداً ديناراً، بيّنت في المفعول الأول حدود من تُلَقّى الإعطاء (خالداً)، وفي الثاني (ديناراً) نوع الإعطاء.

وإن قلت:

أعلم أحمد خالداً أخاه ناجحاً، كنت قد زدت بياناً تقييدياً آخر (ناجحاً) على حدود الفعل.

كل إضافة ترقية، أي صعوداً بالفائدة من درجة إلى درجة أعلى. حين تضيف «ناجحاً»، رقيتها مرة أخرى. كل إضافة تُغلق احتمالاً. وحين تُغلق الاحتمالات بهذا الترتيب، يُصبح الإخلال به، التقديم أو التأخير، تهديداً للمعنى لا مجرد خروج على الأصل.

الآن لنأخذ جملة من المقتطف:

في اللحظة التي أفهم فيها عدوي حقّ الفهم، أفهمه بما يكفي  
لهزيمته

في الجملة: «أفهمه بما يكفي لهزيمته»

الفاعل ضمير مستتر «أنا»، والمفعول ضمير «الهاء». أي الفاعل والمفعول كلاهما ضمير، وهو إيجاز مكثف جداً، ويشترط له أن يكون المخاطب والمتكلم عالِقين بالفاعل والمفعول.

الجملة تؤدي غرض «ترقية الفائدة»، الفعل «أفهم» جاء مطلقاً في الجملة السابقة «أفهم عدوي»، ثم قُيد هنا بـ «بما يكفي لهزيمته». كل قيد يُضيق الاحتمال ويُعمّق البيان، هذا ما يُسمى «البيان التقييدي».

لكن ما يجري أكثر من هذا:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾

في النحو، الضمير المستتر في «أَسْلَمْتُ» يتقدم على المفعول الظاهر «وجهي» لأن: الضمير معلوم فيقَدَّم، والاسم الظاهر مجهول فيؤخَّر. ثم يرى النحو في «ومن اتبعني» معطوفاً على الضمير المستتر في «أَسْلَمْتُ». كل هذا صحيح. لكن النحو لا يرى أن «أَسْلَمْتُ وجهي لله» جاء تمهيداً لا غاية، وأن «ومن اتبعني» هي مركز ثقل الجملة لا ذيلها. البداية تُعلن، والنهاية تُؤسِّس، والفرق بين الإعلان والتأسيس لا يستطيع النحو تفسيره.

«أَسْلَمْتُ وجهي لله» فعل فردي مكتمل، لو وقفت الجملة هنا، لكانت شهادة شخصية لا أكثر. لكن «ومن اتبعني» تحوّل هذا الفعل الفردي إلى مرجع، ويصبح النموذج الذي يُقاس عليه كل من يأتي بعده. الجملة لم تعد تصف فعلاً واحداً في لحظة واحدة، بل تصف فعلاً يتكرر في كل من يتبع.

ولو قلنا:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ وَمَنِ اتَّبَعَنِ لِلَّهِ﴾

لَصَارَ «أَسْلَمْتُ وجهي ومن اتبعني لله» تجمع وجهي أنا ووجوه الأتباع في مفعول واحد، الفرد والجماعة يُعلنان معاً دفعة واحدة، ثم تأتي الغاية «لله» لتستوعبهما.

لكن الآية اختارت أن تُعَلِّق «أَسْلَمْتُ وجهي لله» أولاً؛ فعل فردي مكتمل، ثم تفتح على «ومن اتبعني». الفرد يُعلن موقفه كاملاً، ثم تتسع منه الجماعة. الاتساع يأتي بعد الاكتمال الفردي لا معه.

وهذا هو الفرق: الصياغة التي وضعتها أنا للجملة بعد تغيير موقع «ومن اتبعني» تُخبر بالنتيجة، بينما الآية تُرَبِّنا كيف ينشأ فعل الاستسلام ويتطور.

الترتيب هنا مفروض من السياق، لكنه في الوقت نفسه يخلق المعنى: البداية تُعلن، والنهاية تُؤسِّس؛ تحوّل الفعل الفردي إلى معيار تقيس عليه كل جماعة تتبع. وهذا الثقل لا يأتي وحده من موقع ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ في نهاية الجملة، بل من تضافر شيئين: معنى يحمل فكرة الاستمرار والاتساع، وموقع يقع في نهاية الجملة حيث يتضاعف الأثر. وحين يتضاعفان، ينتج شيء لا يستطيع النحو تفسيره، يستطيع فقط الإشارة إليه.

ونعود إلى المقتطف، حيث الجملة الأخيرة:

ثم أنه في تلك اللحظة ذاتها حين أحبه... أدّمه.

في النحو، «أحبه... أدّمه» جملتان فعليتان. في كليهما الفاعل ضمير مستتر «أنا» والمفعول ضمير «الهاء». إيجاز مكثف، مشروع، لأن الفاعل والمفعول معلومان للطرفين.

وفي البلاغة، الجملة القصيرة بعد الجمل المطولة تقع كالضربة. القصر المفاجئ بعد التراكم يمنح الجملة ثقلاً لا تملكه بحجمها.

لكن ما يجري أكثر من هذا: النحو يرى في «أحبه» و«أدّمه» إيجازاً مزدوجاً؛

ضميران اختصرا فاعلين ومفعولين. والبلاغة ترى فيهما تضاداً بلاغياً، الحب والتدمير في مقابلة. لكن ما لا يراه أحدهما أن «الهاء» في «أحبه» و«الهاء» في «أدّمه» هي الهاء ذاتها؛ الكائن الواحد يتلقى الفعلين المتضادين في آن واحد. النحو يرى اختصاراً مشروعاً، والبلاغة ترى مقابلة جمالية. لكن ما تصنعه الجملة فعلاً هو حبس التصادم: الضمير المتكرر لا يُسْقَى التضاد ولا يُفككه؛ يُبقي القارئ محبوساً داخل التجربة دون أن يمنحه مسافة للتأمل. لو كتب «أحبّ عدوي وأدّم عدوي»؛ والجملة صحيحة نحوياً ومشروعة بلاغياً، لتسرّب التوتر. التصريح باسم «عدوي» يفتح باباً للمسافة، ومن المسافة يبدأ الفهم المريح. لكن استخدام «الهاء» لا يمنح هذا الباب.

ثم نقطنا الحذف «...» بين الجملتين؛ وهذا ما يعجز عن تفسيره النحو والبلاغة معاً؛ لا الفاعل ولا المفعول ولا الترتيب. لكن النقطتان تحملان ثقل الجملة كلها: الفجوة بين الحب والتدمير، اللحظة التي لا تستطيع اللغة ملؤها فتتركها صامتة.

وكذلك يجب أن يتقدم الفاعل على المفعول حين يُخشى اللبس، كما في:

زار موسى عيسى؛

إذ لا قرينة لفظية ولا معنوية تُرَجِّح أيّهما الزائر وأيّهما المَزار.

والنحو يرى في الرتبة هنا الحكم الوحيد، الفاعل أولاً لأنه لا شيء سواه يُعبّئه. وهذا صحيح. لكن النحو لا يرى أن اللبس نفسه قد يكون مقصوداً، وهو ما أُشير إليه حين قيل إن العرب قد «تلبّس عمداً»، إذ يحتمل التركيب أن يكون كلٌّ من موسى وعيسى فاعلاً ومفعولاً. وهذا الغموض المقصود لا يراه النحو لأنه يبحث عن قاعدة تضبط لا عن طاقة تفتح.

ثم هناك الحصر بـ«إلا»، كما في:

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾

النحو يرى أن المفعول المحصور «أنفسهم» لا يتقدم على الفاعل لأن الحصر يحتاج مساراً تمهيدياً: فاعل ثم فعل ثم الضربة الأخيرة في المحصور. وهذا صحيح. لكن النحو لا يرى أن المفعول المحصور هنا هو نفس الفاعل: «يخدعون» و«أنفسهم» يعودان على الكيان ذاته «هم». الخداع يخرج ويرتد إلى مصدره. والحصر هنا ليس تضييقاً للفعل؛ هو انقلاب: الفعل لا يصل إلى الآخر بل يعود على فاعله.

وكذلك الحصر بـ«إنما»، في:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾

النحو يرى «إنما» أداة حصر في الصدارة، والفاعل والمفعول في موضعيهما.

اختياراً. أما حين يكون الجهل مقصوداً، فالضمير المستتر المجهول ليس خطأً في الترتيب، بل هو الترتيب نفسه يعمل بطريقة لم يتحدث عنها النحو.

خذ هذا المقتطف الافتتاحي:

عاد هذا الصباح أيضاً من عند طبيب القلبية بأنباء غير سارة. لقد فقد قلبه الإيقاع. القلب يعمل عادة بتواتر منتظم؛ تنقبض حجرتا الأذين، ثم حجرتا البطين، في تتابع نادراً ما يشعر به الإنسان. عندما يحدث خلل في هذا التناغم، فإنه يحول الحياة اليومية إلى قطعة جحيم. لسبب ما، لا يعرف الأطباء كيف بدأ البطين لديه في الانقباض قبل أوانه، فيحدث انتفاضة تهز كامل الجسم. ليس مرة واحدة في اليوم أو اثنتين أو حتى عشرًا، بل 14,000 مرة، وكأن جزوين صغيرين يتقاتلان باستمرار داخل صدره؛ يخضانه، يرجانه، وينفضانه من دون رحمة.

الفاعل ضمير مستتر «هو»، والقارئ لا يعرف من هو بعد. النحو يرى هنا إيجازاً مشرعاً، لكنه لا يرى أن الكاتب يبدأ من المنتصف عمداً، يرمي القارئ في عالم شخصية لم تُعرّف بعد. الضمير المجهول لا يُخبر القارئ بمن يتحدث؛ بل يجعله يبحث. وهذا البحث هو ما يشدّه إلى الأمام.

القاعدة إذن صحيحة في سياقها: المعلوم يُقدّم حين يكون الجهل إهمالاً. لكن حين يكون الجهل مقصوداً، يتحول الضمير المستتر من اختصار إلى توتر، توتر في معرفة: مَنْ هذا؟ وهو ما لا يستطيع النحو رؤيته لأنه يصف الصحة ولا يصف القصد.

لكنه يرى الحصر في حدود الجملة وحدها. ما لا يراه أن «إنما» هنا تعمل بين جملتين؛ هي تغلق سؤالاً فتحت الآية السابقة:

«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ»

فالحصر لا يبدأ عند «إنما»، بل قبلها، والفرق بين «إلا» و«إنما» هنا ليس في الحكم النحوي؛ كالتأنيب تمنعان تقديم المحصور، بل في المسار: «إلا» تبني توقعاً داخل جملتها ثم تقلبه، و«إنما» تستعير سؤالاً من خارجها ثم تجيب عليه. والنحو لا يرى هذا لأنه يقف عند حدود الجملة ولا يرى ما بينها.

وهذا هو الفرق الحقيقي بين الأداتين: «إلا» تبني مسارها بنفسها داخل جملتها وتنقلب عليه. و«إنما» تستعير مسارها من خارجها وتُجيب عليه. كالتأنيب حصر، لكن إحداها تُفاجئ والأخرى تُجيب.

إذن، أسلوب الحصر أداة قوة في الكتابة، لكنه يشترط الترتيب. قوّته تأتي من كونه يأتي أخيراً.

الفائدة الكتابية: حين تبدأ جملتك بضمير: أنا، هو، هي، نحن، فأنت تُقرّر أن المتلقي يعرف من تتحدث عنه. إن لم يكن يعرفه، فالضمير خطأ، لا الترتيب. المعلوم يُقدّم، والمجهول يُؤخّر. ليس لأن هذا جمال أو قيد، بل لأن هذا هو مسار اكتساب المعرفة؛ تنطلق مما تعرف، ثم تُضاف إليه ما لا تعرف.

لكن هذه القاعدة تصف سياقاً واحداً؛ حين يكون الجهل بالضمير إهمالاً لا

## عن هذه النسخة

هذه نسخة PDF من مقالة نُشرت في موقع «المحرر». النص والصور كما هي في المقالة الأصلية.

---

«كيف يخلق ترتيب المفردات المعنى في الجملة؟ الفاعل والمفعول نموذجاً» — ميّما قرأت · بقلم رشاد عبد القادر · ٥ نيسان ٢٠٢٦  
almuharir.net · تاريخ السحب ١٦ تشرين الأول ٢٠٢٦